مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 17/ العدد 01 –السنة 2023 ص ص 911–930
EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8151

فرانز فانون: من السّرد الكولونياليّ إلى السّرد التحرّريّ.

Frantz Fanon: From a Colonial narrative to a libertarian narrative Capital Letters

تاريخ الاستلام: 2023/01/10 تاريخ القبول: 2023/06/06 تاريخ النشر: 2023/06/18

نسيمـة ضاضي سيسطة *
جامعة 20 أوت 1955 – سـكيكدة (الجزائر)
Email : nsista@yahoo.fr

الملخص:

أعاد النقد ما بعد الكولونيالي تحديد وظيفة (السرد)، الذي تسلح بأدوات تفكيكية في نقد المركزيات، وزحزحة المفاهيم التي فرضتها الثقافة الامبريالية. والتي مكنتها من السيطرة على الشعوب المستعمرة، محاولة فرض تاريخها الرسمي، بدلا من السماح لها بإنتاج تاريخها الخاص

نحاول في هذا البحث رصد ذلك في إبداع فرانز فانون، المثقف الطليعي الذي قاده وعيه إلى صياغة سرد مضاد في كتابه «معذبو الأرض»، كسر به نمطية الصور التي رسخت في المخيال الجمعي عن الشعوب الإفريقية المستعمرة ،وتحرير الحقيقة المسيجة التي أنتجتها الثقافة

الكلمات المفتاحية :السرد، الكولونيالية، الثقافة، المقاومة، التحرر.

Abstract:

An abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article the Postcolonial Criticism has redefined the function of (Narrative), which was armed with deconstructive tools in criticizing centralism, and dislodging the concepts imposed by the imperial culture, which enabledit to control the colonized peoples, attempting to impose their official history instead of allowing them to produce their own history.

In this paper, we try to monitore this in Frantz Fanon's writtings, the avant-garde intellectual whose consciousness led him to formulate a counter-narrative in his book "The Wretched of the Earth", breaking down the stereotypical images that were entrenched in the collective imagination about the colonial African peoples, and liberating the fenced reality produced by European culture.

***Keywords**: narrative, colonialism, culture, resistance, liberation.*

* المؤلف المرسل: نسيمة ضاضي سيسطة

المقدمة

نزداد وعيا بأن ما تمتلكه الفئة المثقفة والطليعية أو النخبة، من وعي صادر عن معرفة علمية صحيحة بالعالم والكون، كفيل بتأكيد أحقيتها في قيادة المجتمع وتنويره، ولفت انتباهه إلى ما يحيط به من مخاطر و مزالق ،ضمن مرحلة مرهونة بشروطها التاريخية، فنتلمس معهم معالم مشروع يرنو إلى ترسيخ ثقافة المقاومة، لدى الشعوب المستعمرة المسلوبة، في ظل تكثيف الجهود(روائيين، شعراء، أكاديميين، فنانين ومؤرخين) كل في مجاله للانخراط في نسج سرديات مضادة لمناهضة هذه المركزيات المتسلطة، وبناء أسوار هوياتية لهذه الشعوب التي تتوق للتحرر الإنساني.

ولكوننا أمام أكبر عملية لتزييف الحقائق وتحريفها، بالاعتماد على سرديات مختلقة لتأكيد الهوية والأحقية، تقودها نخبة مثقفة فرنسية، تشن عمليات توجيه وتحريف للكثير من البنى الثقافية للشعوب المستعمرة، فالسرد الكولونيالي عمل على تحريف صور وحقائق كثيرة من التاريخ، فكان لا بد من مقاومة ثقافية تؤازر مقاومة مسلحة، مبنية على اعتقاد راسخ أن علاقات الهيمنة صناعة رمزية يتدخل فيها التشكيل السردي؛ لهذا كان لا بد من سرد مضاد لتقويض سردية الاستعمار وبيان زيفها؛ إذ هي تستند إلى إيديولوجيا الهيمنة والاستحواذ. هذا السرد المضاد هو نوع من المقاومة الثقافية، والحماية من الذوبان، والتواري خلف صور الآخر.

حاولت الكولونيالية إخضاع الشعوب المستعمرة معززة سلطانها، بحجة النزعة العرقية، وسياسة التمركز حول الذات، ممعنة في إلغاء وتحقير ثقافة هذه الشعو، « حتى كادت أن تجعل هذه الثقافات تنزوي وترضى بوضع لا يتعدى وضع الطقوس الشكلية أو التقاليد الشعبية التي تثير فضول السائح، وتستحق رفوف المتاحف». (الرحمان، 2005، ص 82). وكان لها ذلك من خلال محاولات حثيثة لاجتثاث كل مظاهر التنوع والغنى في ثقافة الشعوب المستعمرة، وخاصة منظومة القيم الاجتماعية والأخلاقية.

هذه الموضوعات هي بؤرة التركيز في اتجاهات النقد الثقافي، وهو منطلقنا في التعامل مع نصوص "فانون"، إذ يمكننا من وضع نصوصه داخل سياقه السياسي من ناحية، وداخل سياق القارئ والناقد من ناحية ثانية.

هكذا يصبح النص علامة ثقافية تتحقق دلالاتها فقط داخل السياق الثقافي والسياسي الذي أنتجها؛ «ويعد منهج التحليل الثقافي، أو التاريخانية الجديدة، من الاتجاهات النقدية البارزة في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد وصفه البعض بالأكثر أهمية، وكان هذا الاتجاه قد أخذ في

التنامي مع نهاية السبعينيات ومطلع الثمانينات من القرن العشرين، على يد عدد من الدارسين في طليعتهم أستاذ جامعة كاليفورنيا- بيركلي، ستيفن غرين لات، والذي عرف بدراساته الجادة حول أدبيات عصر النهضة، من خلال ما أسماه بـ شعرية الثقافة، أو بويطيقا الثقافة» (بعلي، 2007، ص 59)

يدفعنا الجدل والصدام الثقافي المدمر لإعادة قراءة إبداع "فانون" باعتباره كتب لحظة التغيير الثوري، وبوصفه نموذجا للوعي الناضج، والواعي بالمسألة الثقافية الغربية، وهو ينقض طرق تعاملها بإقصاء وتهميش للثقافات المحلية للشعوب المستعمرة؛ فكتاباته تحتل الصدارة في خطابات الاستعمار وما بعد الاستعمار، وتمكنت من مواكبة حياة الكفاح والشتات للشعب الجزائري الذي عاث المستعمر الفرنسي فسادا وظلما فيه.

1. السرد التحرري في مواجهة السرد الكولونيالي:

تعانقت الكتابة السردية مع مشروع الامبريالية من خلال تسخير مادتها ومحتواها الثقافي في ترسيخ قيم الإخضاع للشعوب المستعمرة، ونورد هنا نصا لمثقف وكاتب طليعي، يدعي حمله قيم التنوير والتحرر وهو "ألبير كامي" الذي يقول فيه: « فيما يتعلق بالجزائر، فإن الاستقلال القومي صيغة من العاطفة المشبوبة الخالصة، لم يكن ثمة أمة جزائرية أبدا، وأن من حق اليهود، والأتراك، واليونانيين والايطاليين، والبربر أن يدعوا لأنفسهم حق قيادة هذه الأمة الكامنة، في الواقع الفعلي، ولا يشكل العرب وحدهم الجزائر كلها، وإن أهمية الاستيطان الفرنسي والزمن الذي مضى عليه، بشكل خاص، لكافيان لخلق مشكلة لا تقارن بها أية مشكلة أخرى في التاريخ. إن فرنسيي الجزائر هم أيضا، بأشد معاني الكلمة قوة، أصلانيون، وعلاوة فإن الجزائر عربية محضا تعجز عن تحقيق ذلك الاستقلال الاقتصادي الذي لا يعدو الاستقلال السياسي من دونه أن يكون وهما» (سعيد إ.، 2004، ص 15)

هذا التشويه المنظم، هو شذوذ مخالف للعقل و التاريخ، يمارسه السرد الكولونيالي عن الجزائر وشعبها، امتد لأكثر من قرن، ترك ندوبا لجراح مذلة، وتحريضا لليهود والايطاليين واليونانيين والأتراك، لأن لهم القدرة على قيادة هذه الأمة التي تدين لفرنسا ،لأنها سبب وجودها.

وعليه؛ فقد برزت حاجة ملحة إلى سرد مضاد، والسرد المضاد هو أن تنتج الضحية خطابها الشخصي، وبالتالي دحض الصور النمطية التي أنتجت حوله، ورسخت في المخيال الجمعي، بصفتها حقائق لا يمكن مراجعتها أو مساءلتها. ويهدف هذا السرد إلى:

- تحرير المخيال الجماعي من كل أشكال الاستعباد.
- صياغة هوية مستقلة عن طريق تأكيد اختلافها مع صور الأخر.

ولأن التحرر يقتضي مواجهة هذا العالم، فكان لا بد من مساءلة التاريخ الرسمي والانتقائي وإعادة تأهيل الذاكرة الجمعية، التي عمل السرد الكولونيالي على تزويرها ومحوها وطمسها، وفضح كل أشكال الهيمنة الثقافية، والقمع والتحيز والاستعباد و التّنميط التّام، الذي تعّرضت له صورة الشعوب المستعمرة من قبل السّرديّات الامبريالية ذات الإنتاج الجماعّي الواسع، فمن خلالها تمّ تبرير وتسويغ احتلال هذه الشعوب واستغلالها وإخضاعها.

ونستحضر هنا هذا الموقف حين استبدل "بول ريكور" شعار عصر الأنوار القائل:
"تجّرأ على أن تعرف واخرج من حالة القصور والوصاية" بشعار آخر يقول « تجّرأ على أن تسرد قصّتك بنفسك» (ريكور، 2009، ص 649) من خلال السّعي إلى تأكيد الذّات وتثبيتها، وإغناء مخيال الأّمة ورصيدها الثقافّي وفتح آفاق الرؤية التّاريخيّة للجماعة .كما أنّه فعل مقاومة للخلاص من الهيمنة من خلال كتابة سرديّاته التي تقوم على توجيه مسار الوعي في ظّل التدافع الوحشّي من أجل تثبيت الكينونات الفرديّة والجماعيّة في الأرض، ذلك أن من يفشل في كتابتها يخسر الأرض، و تصبح الهويّة هويّة سرديّة في جوهرها.

وعندما طُرح سؤال ما الأنوار؟ أجاب "كانط" عن المعنى فقال: « هو خروج الإنسان من حالة القصور، التي يبقى هو المسؤول عن وجوده فيها، والقصور هو حالة العجز عن استخدام الفكر عند الإنسان خارج قيادة الآخرين، والإنسان مسؤول عن قصوره لأن العلة في ذلك ليست في غياب الفكر، وإنما من انعدام القدرة، على اتخاذ وفقدان الشجاعة على ممارسته، دون قيادة الآخرين، لتكن تلك الشجاعة هي استخدام فكرك بنفسك، ذلك هو شعار عصر التنوير» (كانط، 1984، ص 65). وللخروج من حالة القصور والوصاية، سعت الشعوب المستعمرة لبناء سرديات مقاومة، نبعت من شرطها الثقافي لرسم صورة مغايرة عن الذات، متسلحة بالسرد والتاريخ وتحرير الذاكرة، ففضحت كل التزييف والتحريف الذي مس تاريخهم، عبر قمع الأصوات ومسخ الهويات من قبل الاستعمار الذي فرض صورا نمطية، ومشوهة على المستعمِر الذي جرى تشويهه بل

جعلوه مستودعا للشر «وهذا ماير يقول جادا في الجمعية الوطنية الفرنسية: إن علينا أن لا نلوث الجمهورية بإدخال الشعب الجزائري إليها، ذلك أن القيم تتسمم وتفسد على نحو لا يمكن إصلاحه متى جعلناها تحتك بالشعب المستعمَر إن عادات المستعمَر وتقاليده ، وخرافاته خاصة خرافاته هي بعينها علامة هذا الانحطاط وهذا الفساد القائم في تكوينه ذاته، ولذلك لا يجب أن نضع على مستوى واحد مبيدات الحشرات التي تنقل الأمراض» (فانون، 2015، ص 44) .إذن هي معركة تخوضها الشعوب المستعمرة، ومعها الإنسانية المعذبة، لافتكاك الاعتراف بوجودها واختلافها، في ظل هجوم متواصل خلال الحقبة الاستعمارية، من أجل حملها على الاعتراف بتخلف ثقافتها ، وبوهمية وجود أمتها، بل حتى الاعتقاد بأن تكوينها البيولوجي غير مكتمل.

كما تتحقّق هنا مقولة إدوارد سعيد: أن القصص تغدو الوسيلة التي تستخدمها الشّعوب المستعمرة لتأكيد هويّتها الخاصّة. ووجود تاريخها الخاصّ.«لا شكّ أن المعركة الرئيسيّة في العمليّة الامبرياليّة تدور طبعا من أجل الأرض، لكن حين آل الأمر إلى مسألة من كان يملك الأرض، ويملك حقّ استيطانها والعمل عليها ومن ضمن استمرارها وبقاءها، ومن استعادها، ومن يرسم الآن مستقبلها –فإنّ هذه القضايا قد انعكست ودار حولها الجدال، بل حسمت أيضا لزمن ما في السّرد الروائي» (سعيد إ.، 2004، ص 58).

من هنا ندرك أهمية السرد؛ إذ وجد الإنسان في إبداعاته السردية التي سطر بها الكون أفضل الوسائل للتعبير عن كينونته وذاته الحضارية، لتكون قنوات للتواصل مع ذاته ومحيطه، والحاجة الوجودية إليه لبقاء أثار الإنسان على الأرض، «والسرد في السياق الجديد هو تشكيل عالم متماسك متخيل، تحاكي ضمنه صور الذات عن ماضيها، وتندغم فيه أهواء، وتحيزات، وافتراضات تكتسب طبيعة البديهيات، ونزوعات ، وتكوينات عقائدية يصوغها الحاضر بتعقيداته بقدر ما يصوغها الماضي بمتخيلاته وخفاياه... كما يصوغها بقوة وفعالية خاصتين فهم الحاضر للماضي ومنهاج تأويله له، ومن هذا الخليط العجيب تنسج حكاية هي تاريخ الذات لنفسها وللعالم، تمنح طبيعة الحقيقة التاريخية وتمارس فعلها في نفوس الجماعة وتوجيه سلوكهم وتصورهم لأنفسهم وللآخرين بوصفها حقيقة ثابتة تاريخيا» (سعيد إ.، 2004، ص 17). ويتأكد أكثر حين يرتبط بموضوع الاستعمار الذي شغل حيّزا كبيرا من ذاكرة الشعوب المستعمرة، فيكشف لنا هذا

الأساس الطبيعة الكونية للسرد، لكونه طريقة مثلى للتواصل، ونموذجا قويا للإقناع، خاصة حين يتعلق بحالات استكشاف الذاكرة والهوية والتاريخ، وبناء الذات داخل سياقات ثقافية مرتبطة بالهوية. ويؤكد "بول ريكور" ذلك بقوله: «هناك يرتفع سؤال الهوية ويصل إلى جوهر السرد. استنادا إلى أطروحتي، يؤلف السرد الخواص الدائمة لشخصية ما، هي ما يمكن أن يسميها المرء هويته السردية، ببناء نوع من الهوية الدينامية المتحركة الموجودة في الحبكة التي تخلق هوية الشخصية. و جدوى هذا الالتفاف من خلال الحبكة، هي كونه يقدم نموذج التوافق المتضارب الذي يمكن فيه بناء الهوية السردية للشخصية» (وورد، 1999، ص 260).

ولكون التاريخ مركز جذب للمبدعين، بما يحمله من اكتناز سردي، ومحمولات دلالية، فقد جعل الفضاء رحبا لتتجسد مفاهيم : الحرية والكرامة الإنسانية، والعدل والتضحية، والصمود والثورة، كما أنه يظهر بهيئات سردية مرمزة ومكثفة لها فيض دلالي جارف. «إن إعادة التصوير التي يقوم بها السرد تؤكد هذا الجانب من المعرفة الذاتية التي تتخطى ميدان السرد، أعني أن الذات لا تعرف ذاتها مباشرة، بل بطريقة غير مباشرة فقط من خلال انعطاف العلامات الثقافية بجميع أنواعها، التي يتم إنتاجها استنادا إلى وساطات رمزية تنتج دائما وأساسا الفعل، ومن ضمن هذه مرويات الحياة اليومية. وتؤكد الوساطة السردية هذه الخاصية الجديدة بالانتباه في المعرفة الذاتية» (وورد، 1999، ص 264).

ويؤكّد إدوارد سعيد في السّياق نفسه، أنّ الأمم هي ذاتها سرديّات ومرويّات،« وأنّ القوّة على ممارسة السّرد، أو على منع سرديّات أخرى من أن تتكوّن وتبزغ، لكبيرة الأهميّة بالنّسبة للثّقافة الامبرياليّة، وهي تشكّل إحدى الروابط الرّئيسيّة بينهما، والأكثر أهميّة أن السّرديات الجليلة الكبرى للتحرّر والتنوير قد جنّدت الشّعوب في العالم المستعمر وحفّزتها على الانتفاض وخلع نير الامبرياليّة، وخلال هذه العمليّة هزّت تلك القصص وأبطالها العديد من الأوروبيّين والأمريكيّين، أيضا فقاموا هم بدورهم بالصّراع من أجل سرديّات جديدة للمساواة و(الرّوح) المجتمعيّة الإنسانيّة» (سعيد إ.، 2004، ص 58).

في هذا السياق يندرج مشروع "فرانز فانون" من خلال كتابه: «معذبو الأرض» الذي ترجمه السوريان جمال الأتاسي، وسامي الدروبي، سنة (1963)، وكتب مقدمته الشهيرة "جون بول سارتر"، ووصفه ادوارد سعيد بأنه « كتاب هجين، فهو جزئيا مقالة، وجزئيا قصة متخيلة، وجزئيا تحليل فلسفي، وجزئيا تاريخ حالات نفسي، وجزئيا حكاية ترميزية <أليغورية> قومية، وجزئيا

تسام رؤيوي للتاريخ» (سعيد إ.، 2004، ص 325). ليدحض به كل أنواع الاستبداد الفكري والسيطرة على الشعوب الإفريقية والاستيلاء على ثرواتها والإبقاء عليها في وضعية التخلف والفقر، خاصة أن "فانون" هو طبيب نفساني ومجاز في الفلسفة وكان محاورا نبيها للعقل الغربي والفرنسي على الخصوص، وناقدا للكثير من التيارات الفكرية والفلسفية والنفسية الغربية. حارب بقلمه وفكره الذي خصبته ثقافة قوية، ليترك لنا أثرا سيصبح إنجيلا لكل حركات التحرر في العالم.

3.فرانز فانون ونقد المركزية الغربية:

3. 1 العنف والعنف المضاد:

قد فانون في هذا الكتاب الفكر الغربي المتمركز حول ذاته، كما شكك في النزعة الإنسانية التي تمثل أحد أسس الحداثة الغربية، حيث ظلت أوروبا تمثل مركز العالم المضيء لباقي الأطراف الأخرى، بهدف الثورة على هذا النظام ، وقد أفرد في كتابه «**معذبو الأرض**» فصلا بعنوان: [**في العنف**] موضحا أن الكولونيالية هي في جوهرها عنف جذري، لا يمكنها أن تتراجع إلا بعنف أعظم منها، ولم يطلب فانون العنف لذاته كما اختزلته بعض القراءات الفلسفية الغربية، أي أن فانون لم يمجد العنف لذاته، فهو يدرك أن تمجيد العنف لذاته هو استهتار بأرواح الناس، وعدمية قبيحة لا تصدر إلا عن نفس سادية مرضية، كما أن الإيديولوجية الثورية الدائمة لا يترتب عنها إلا الدمار والخراب، يقول: «إن محو الاستعمار، وهو يستهدف تغيير نظام العالم، إنما هو، كما ترون، برنامج لقلب النظام قلبا مطلقا، ولكنه لا يمكن أن يكون ثمرة عملية سحرية أو زلزالا طبيعيا أو تفاهما وديّا، أي أنه لا يمكن أن يعقل، ولا يمكن أن يصبح واضحا لنفسه، إلا بمقدار إدراك الحركة الصانعة للتاريخ التي تهب له شكله ومضمونه، إن محو الاستعمار هو نزال بين قوتين متعارضتين أساسا، قوتين تستمد كل منهما صفتها الخاصة من ذلك التكوين الذي يفرزه الظرف الاستعماري ويغذيه» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 39). و التقابل الأول بين هاتين القوتين إنما تحت شعار العنف، أي أن العنف هو السبيل الوحيد للخلاص من الاستعمار، وهي الفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا الكتاب، فليس لهذا المستعَمر الذي لم يتبق له شيء إلا اختيارا واحدا، فإما العبودية أو السيادة. ويكتب "فانون" بلغة كاشفة لطريقة محو الاستعمار حيث يقول: «إن محو الاستعمار حين يعرض عاريا، يكشف من خلال مساماته كلها، عن رصاصات حمر و

خناجر دامية. ذلك أنه إذا كان على الأواخر أن يصبحوا هم الأوائل، فان هذا لا يمكن أن يتم إلا بعد قتال حاسم مميت يخوضه الطرفان المتنازعان» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 40). فالعنف وحده هو من يجعل الأواخر الأوائل، وهو القوة الوحيدة التي تنسف أركان هذا النظام الاستعماري.

وعكس ما ذهبت إليه "حنه أرنت" عندما وصفت "فرانز فانون" بأنه داعية عنف، فإن "فانون" يرى في العنف أداة للتخلص من العنف الحقيقي؛ لأن الاستعمار لا يفكر بل هو عنف هائج، ولأنه يستمد شرعيته من القوة فلا يمكن توقيف عنفه إلا بعنف أقوى، فالعنف طاقة لا نظير لها وهي عملية تطهير على مستوى الشخص، وعامل مطهر لعودة الوعي الصحيح. ويقصد بذلك عنف العدالة وتطهير النفس.

3. 2 سيكولوجيا المستعَمر:

يؤكد المهتمون بفكر "فرانز فانون" وسيرته، اقتران نشاطه الفكري مع نضاله العملي بقولهم: «لم يفترق الوجهان التوأمان لنشاطه: الترويج للثورة والترويج للتحليل النفسي الحقيقي، وهما مظهران للالتزام نفسه» (غيبسون، 2013، ص 154).

وقد رأى "فانون" الحراك المناسب في الثورة الجزائرية ، «فآمن بأنها ثورة جذرية، ثورة إنسانية أصيلة لن تنحصر في أرضها، وشعبها، بل ستتردد أصداؤها في إفريقيا كلها، وفي جميع البلاد المستعمرة المتخلفة ...وآمن فانون بأن الثورة هي الطريق الوحيدة إلى تحرير الإنسان، وبأن العمل الثوري هو السبيل إلى أن يتجاوز الإنسان وضعه، وإلى أن ينتقل من العبودية والضياع إلى الوجود الحر الكريم» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 11).

نذكّر أولا بأن "فرانز فانون" عمل طبيبا نفسانيا في مستشفى البليدة، وقد أتاح له عمله الاحتكاك عن قرب بالمجتمع الجزائري، ومن خلال تعامله مع المرضى، أعاد النظر في طروحات علم النفس الكولونيالي، حيث عمل "فانون" على تقويض الأسس النظرية، التي قام عليها علم النفس الكولونيالي وفضح مغالطاته، وإبراز جوانبه اللاإنسانية، بل اتهمها بأنها تبريرية للاستغلال، واصفا الاستعمار بالعنف الشامل، وهو-حسب رأيه- يتضمن كل أنواع العنف السياسي والعسكري والثقافي والنفسي، ويعتبر التعذيب الجسدي والنفسي مثالا صارخا للعنف الاستعماري، وعنصرا أساسيا لفهم النظام الاستعماري فيقّر: «بأنه لا يمكن فهم الاستعمار خارج إمكانية التعذيب والاغتصاب والمجازر» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 73)

قام "فانون" في كتابه "معذبو الأرض" بتسليط الضوء على التأثيرات الموهنة والمأساوية التي تخلفها الحرب على جميع الناس، مركزا على إبراز الواقع الكولونيالي الذي يسحق الذوات ويبقيها في حالة استعداد لتلقي المرض، ففي الفصل المعنون بـ "**الحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسية**" يقر بأن اضطرابات عقلية واضطرابات في السلوك قد ازدادت:« والحقيقة أن الاستعمار في جوهره كان قبل الآن يصدر لمستشفيات الأمراض العقلية كثيرا من زبائنها، ولقد لفتنا نظر علماء الطب العقلي الفرنسيين والعالميين منذ عام 1954، في بحوث علمية مختلفة إلى صعوبة شفاء مريض من المستعمرين شفاء سليما، أي جعله متجانسا تجانسا تاما مع بيئة اجتماعية من الطراز الاستعماري» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 200). فهذه الأمراض يحدثها الاضطهاد إحداثا مباشرا.

أصبحت هذه الحرب تربة صالحة لانطلاق الاضطرابات العقلية، «إن الطب العقلي العيادي، بوجه عام، يصنف مختلف الاضطرابات التي لاحظناها في مرضانا في باب "أمراض الذهان الاستجابي" ويبدو لنا أن الحادث الذي أطلق المرض في الحالات التي نعرضها هنا هو في الدرجة الأولى ذلك الجو الدامي الذي لا يرحم، هو تلك الأعمال التي لا تعرف الروح الإنسانية والتي أصبحت عامة شاملة، هو هذا الشعور الدائم الذي لا يبرح نفوس الناس بأنهم يشهدون قيام الساعة» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 200).

تمضي هذه الثنائية أحيانا إلى أقصى منطقها، فتجرد المستعَمر من إنسانيته، حتى لتعده حيوانا، «انظر إلى اللغة التي يتكلمها المستعمِر حين يتكلم عن المستعَمر، نجد أنها اللغة المستعملة في وصف الحيوانات، إنهم يستعملون هذه التعابير: زحف العرق الأصفر، أوراث المدينة الأصلية، قطعان الأهالي، تفريخ السكان، تنمل الجماهير» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 44). فهذه الجماهير تعرضت في الوضع الكولونيالي لعملية نزع إنسانيتهم بصورة كاملة، فالاستعمار ينكر كل صفة إنسانية على المستعَمر، هذا الكائن المقهور والمستعبد، لجأ الاستعمار لإهانته بكل الوسائل، ففرض الاستغلال والازدراء عليه ، فليس هناك تفاعلا إنسانيا، إنما هي علاقات سيطرة وخضوع، فالمستعَمر حسبهم ليس شبيها بالإنسان، فقد تم تجريده من إنسانيته، فنشأ عن كل ذلك

انفصامات وحواجز، عمقت التنافر والنزاع، وأججت الصراعات والاحتدامية بين الإنسان والإنسان، وكل ذلك نتيجة الامبريالية والاستعمار.

يدعو "فانون" إلى قلب كامل ، ليس للأوضاع والمستويات الاجتماعية والثقافية، وإنما إلى قلب للنظام الثقافي نفسه، معتمدا على رأي فيخته «من أن الأنا تفرض نفسها بالمعارضة، ولكن من زاويتين: زاوية تقول نعم للحياة والحب والكرامة، وزاوية تقول لا لاحتقار الإنسان، لا لإذلال الإنسان، لا لاستغلال الإنسان، لقتل أجمل ما في الإنسان: الحرية.» (فانون، بشرة سوداء أقنعة بيضاء، 2004، ص 235)

يعرض "فانون" في هذا الكتاب، مصائر معذبة لمرضاه، فكان يعالجهم بقدر عال من الإنسانية، تلخص صور معاناتهم لنا، تاريخ السيطرة الفرنسية على الجزائريين، التي فرضت واقعا مؤلما، قّرر إحياءه بدقة، مركزا على الغياب اللافت للندامة، والرأفة والتعاطف الشعوري لدى الفرنسيين، فالحالة الأولى التي نعرضها هي لمفتش أوربي يعذّب امرأته وأولاده، عمره ثلاثون عاما، فهذا المفتش لا يحب أن يُعارض، ويرغب في تعذيب كل من يعترض طريقه، وأي شيء تافه يثير في نفسه هذه الرغبة، ولم تسلم منه زوجته ولا أولاده، حتى ولده الصغير الذي لم يتجاوز العشرين شهرا. فهذا المريض اضطراباته ناشئة مباشرة عن نوع العمل الذي يقوم به في قاعات الاستجواب: « ولما كان لا يفكر في التوقف عن القيام بأعمال التعذيب (إذ أن ذلك يعني أن يستقيل) فقد طلب إلي، من غير لف ودوران، أن أساعده على أن يعذب المواطنين الجزائريين دون أن يصاب من ذلك باضطراب في السلوك، أي أن يعذبهم بهدوء وجأش رابط» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 215). ولأن أشكال التعذيب تفوق التحمل البشري، فقد كانت مؤلمة للضحية والجلاد على حد سواء، فالحالة الثانية هي لشرطي أوروبي يسمع صرخات تمنعه من النوم، ويضع اللوم على الضحايا المعذبين، وفي إحدى الجلسات العلاجية اعترف قائلا: «إنهم يجيبون على جميع أسئلتك بقولهم لا أعرف،...لا بد إذن من العمل...ولكنهم يصرخون كثيرا، وكان هذا يضحكني في أول الأمر، غير أنه بعد ذلك يهزني، وأصبحت اليوم أعرف من مجرد سماع صراخ أحدهم أن أعرف أين هو من الاستجواب،...فالفتى الذي لطم لطمتين، وضرب بالمطرقة وراء أذنه، له طريقة خاصة في الكلام والصراخ وفي قوله أنا بريء، حتى إن ظل ساعتين معلقا من قبضته أصبح صوته صوتا آخر، وبعد المغطس يكون صوت ثالث له ، وهكذا دواليك، ولكن بعد الكهرباء خاصة إنما يصبح الأمر لا يطاق» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 213).

يعري "فانون" في هذا النص قيم الغرب التي يتغنى بها، وجاء إلى هذه المستعمرات وهو يزعم نشرها: وهي الحرية، والمساواة، والأخوة، والمحبة، والشرف، وغيرها. إن هذه القيم الخالدة والدعوى الإنسانية، تفقد أجنحتها، أمام هذه الممارسات غير المعلنة في خطاباتهم، ها هي تظهر مكشوفة العورات، وغير جميلة، بل تدعو إلى الاشمئزاز. إن "فانون" يفضح أكاذيبهم واحدة بعد الأخرى، وفي ظل هذه الهيمنة ازدادت مشاعر المهانة والاستعباد لدى المستعمَرين، مما أجج الصراع الأبدي بين السيادة والعبودية، وبين الخصوصية والغيرية، وبين الأنا والآخر، ومن هنا تأتي مشروعية المطالبة بإنشاء أمة، وعلينا أن لا نضيع الوقت في ترديد الشعارات القائلة: "بأن الجوع مع الكرامة خير من الخبز مع العبودية"، وعليه يقر "فانون" بأنه «لا وجود للأمة إلا ببرنامج تنضجه قيادة ثورية وتعتنقه الجماهير اعتناقا قائما على الفهم الواضح والحماسة الثابتة. ويجب علينا دائما بأن نضع الجهد القومي في هذا الإطار .يجب أن تكون الجبهات التي نقاتل فيها، جبهة الجوع، جبهة الجهل، جبهة البؤس، جبهة تأخر الوعي، يجب أن تكون هذه الجبهات ماثلة في أذهان رجالنا ونسائنا، وفي عضلاتهم. يجب أن يكون عمل الجماهير وعزمها على تحطيم الحواجز التي أبعدتها عن تاريخ العقل الإنساني قرونا طويلة» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 165).

إن الظلم التاريخي والفكري والثقافي الذي مارسته الكولونيالية على الشعوب المستعمرة، ولّد ردة فعل قوية ورافضة لهذه المركزية، لذا اهتم "فانون" بنقض هذه المركزية وعمل على تفكيكها ودحضها، استجابة لتحولات جدلية للتاريخ، وهي محاولة جريئة ومن الداخل العارف بخباياها، كما وصفها "جون بول سارتر" في مقدمته الشهيرة لكتاب "فانون" "معذبو الأرض" ، مقرا بأن نقده مدجج بأسلحة نقدية قوية ومؤثثة بآليات حصيفة، جعلته مقنعا إلى حد كبير.

تحتل السردية في كتابه "معذبو الأرض" مكانة منهجية رئيسة، يعتمد عليها "فانون" لتبيان الاختلافات والتصورات الناتجة عن الذات والعالم والتاريخ، وتدخل في هذه السردية مكونات الدين والعرق، كما يعمم مفهوم السرد على حالات الرجوع إلى الثقافة والهوية والتراث...ومن هنا ندرك أهمية السرد بوصفه تجسيدا تعبيريا لخبرتنا، وطريقة للتواصل وشكلا لفهم العالم وأنفسنا في النهاية.

وقد أسهم "فانون" في ولادة نص مقاوم للمركزية الأوربية، مطلقا صرخة عملت على تفكيك منظومة فكرها، وتقويض عقلانيتها، وبيان زيفها، مبينا استنادها على ايديولوجيا الهيمنة والاستحواذ.

فالقوى الكولونيالية قامت بتسويغ استعبادها ونهب ثرواتها باسم التفوق العرقي والثقافي، وإبادتها من منطلق المغامرة الروحية والمهمة الحضارية، لمجتمعات بدائية ذات أعراق دونية تفتقر للحضارة، فأخضعت هذه الشعوب ونهبت ثرواتها، ويتأكد هذا الطرح في اعتراف "جون بول سارتر" في تقديمه لكتاب "معذبو الأرض" يقول: « إنكم تعلمون حق العلم أننا مستغلون، إنكم تعلمون حق العلم أننا سلبنا "القارات الجديدة" ذهبها ومعادنها ثم بترولها وجئنا بذلك كله إلى بلادنا القديمة، وقد حصلنا من ذلك نتائج رائعة: قصورا وكاتدرائيات و عواصم صناعية... فالإنسان في بلادنا شريك في الجريمة، لأننا أفدنا جميعا من استغلال المستعمرات» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 33).

فقد أحدث فانون تحولا مركزيا في مفهوم الموضوع في الكتابة السردية، فنراه لا يحتفي بقضايا الإنسان مع الحب، وارتباطه بالآخر، أو قضايا التاريخ، وإنما أحدث تحولا مركزيا في هذا المفهوم، فلم تعد سيرة حياة الإنسان هي ما يهمه، وإنما أصبح الوعي بالإنسانية والإنسان وتصوير ضعفه وانهزاماته هو الموضوع.

"فرانز فانون" من بيئة مستعمرة (جزر المارتنيك وهي مستعمرة فرنسية) عانت الظلم والعنصرية بجميع أشكالها، دفعته كل هذه الظروف لأن يكون، رجلا ثوريا، يطالب بإنهاء الاستعمار الذي يمارس العنف بشكل مفرط، ويستخدم أسلحة ثقيلة (طائرات، مدافع، قنابل) فخلفت دمارا كبيرا، و قوافل من الضحايا، وخاصة منذ قرار إتباع سياسة الأرض المحروقة، على مئات الكيلومترات. «أصبح يوجد على الحدود التونسية والمغربية ما يقارب 300,000 لاجئ، ويعرف المطلعون حالة العوز الشديد التي يعيش فيها هؤلاء اللاجئون. لقد انتقلت إلى هذه المناطق بعثات من الصليب الأحمر الدولي، فلما اطلعت على البؤس الشديد وعلى الظروف القلقة التي تكتنف معيشة هؤلاء التعساء، أوصت المنظمات الدولية بزيادة المساعدات» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 237).

يتجسد السرد في إبداع "فانون" باعتباره شكلا ثقافيا ودراما اجتماعية شديدة التعقيد، يستخدم سردا رمزيا مكنه من التعبير عن ظروف الحياة تحت القصف وألسنة النيران والمدافع

والقنابل، وكل أشكال القتل والتعذيب، والخراب الذي يخلفه الإنسان كلما ابتعد عن إنسانيته. «فعمليات القصف بالقنابل، وتبعثر العائلة نتيجة لظروف الرحيل ذلك كله يحيط هؤلاء بجو دائم من الشعور بعدم الأمان، ويجب أن نعلن أن الجزائريات اللواتي لم تظهر فيهن اضطرابات عقلية قلة قليلة.» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 224).

يسلط "فرانز فانون" الضوء على واقع مؤلم، ليطرح بعدها تحليلا نفسيا لكل هذه الآثار المدمرة على صحة الأفراد والمجتمع ككل، متسائلا متى تنتهي مواجع معذبو الأرض؟ متى تنتهي المظالم؟ متى ينتهي الخضوع؟

كما يعرض بألم شهادات مرضاه الذين يعالجهم في مستشفى البليدة ،وهو يحاول مساعدة مرضاه لاستعادة الانسجام مع ظروف حياتهم الجديدة، عبر سرد يشكل إطارا لغويا وسيكولوجيا وثقافيا لمحاولات الضحايا الانسجام مع ظروف وجودهم الطارئة؛ مثل ما هو الحال مع هذه الحالة وهي لشاب في السادسة والعشرين، انخرط في صفوف المجاهدين، أصيب بعجز جنسي على إثر اغتصاب زوجته من قبل جنود فرنسيين، يبدأ الحدث المأساوي بعد تلقيه رسالة من زوجته تخبره فيها بأن ينساها، لأنها قد تلطخت بالعار، وعليه ألا يفكر بعد اليوم في استكمال حياتهما المشتركة.

هي حالة واحدة لمريض واحد يعالجه، لكن المأساة والوجع تحياه أسرة بكاملها، الزوجة والبنت والأب ومن حولهم، فهذه المرأة اعتقلها الجنود الفرنسيون لأكثر من أسبوع، تعرضت فيه لأقسى أنواع التعذيب من أجل الحصول على أخبار ومعلومات عن زوجها، «ظلوا يضربونها ضربا مبرحا طوال يومين ولكن في يوم أ خرج أحد العسكريين الفرنسيين رفاقه الآخرين واغتصبها، وبعد قليل اغتصبها شخص آخر بحضور الآخرين، في هذه المرة، وقال لها "إذا رأيت صعلوك مرة أخرى ذات يوم فلا تنسي أن تذكري له ما فُعِلَ بك» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 205).

يسرد "فانون" معاناة هذا الشاب والآلام التي قاساها، ورغم إسعافه بمقادير كثيرة من المهدئات، فقد نشأت لديه حالة من فرط التهيج الخائف، وحين تحدث . بعد صمت طويل. قال لطبيبه :«لقد ذاقت الفرنسيين» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 206).

يجب أن نقرأ ذلك في سياق المجتمع، الذي نعيش فيه، فالمجتمع الجزائري المسلم، الشديد المحافظة، شديد التكتم على مثل هذه الأفعال الشنيعة، لأنها تلطخ شرفه وتسمه بالعار، «والعار هو الإحساس بالخزي والمهانة الذي يأتي بعد انكشاف الفعل المعيب» (غيرتز، 2009، ص 740). في ثقافة تولي اهتماما بالغا بقضايا الشرف، والعرض، والسمعة، لذا لا يمكننا فهم هذه النصوص السردية إلا في ضوء التحليل الثقافي الشامل، ففلسفة الاستعمار تقوم على احتقار ثقافة الشعوب، فقد عمل المستعمِر على تحطيم صورة الحياة الاجتماعية للشعوب المستعمَرة، كما خرب بلا قيود نسيجهم الاجتماعي، فهذا الفعل (فعل الاغتصاب)، مستهجن ومرفوض في كل الثقافات، ولكن في المجتمع الجزائري المحافظ، له أكثر من دلالة، فهو موت رمزي، يترك آثارا مدمرة على نفسية الضحية ومن حولها، فتكمن لوعة الضحية في الإحساس الفظيع بالضياع مع صلابة الأرض، فتفجر قواها المزعزعة من جديد، مولدا شرخا مرفوضا لا التئام له بين الذات ومحيطها، ويخلف أسى يشل كل القوى، فيعاني كل ضروب الإحباط والبؤس، فما حدث لهذه الزوجة لم يكن حدثا عابرا، «وإنما هو اغتصاب امرأة عنيدة تحملت كل شيء إلا أن تبيع زوجها، وهذا الزوج هو أنا، لقد أنقذت هذه المرأة حياتي، وحمت الشبكة كلها، وبسببي أنا تلوث شرفها، ولكن لم تقل لي، هذا ما قاسيته في سبيلك، وإنما قالت: عليك أن تنساني، وأن تجدد حياتك، فقد تلطخت أنا بالعار» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 206).

يتدفق السرد مع "فانون" باعتباره شكلا ثقافيا، ودراما اجتماعية شديدة التعقيد، يستخدم منهلا رمزيا يمكنه من التعبير عن ظروف الحياة تحت القصف، وألسنة النيران، والمدافع والقنابل، وكل أشكال القتل والتعذيب، ليكون عالم الرعب والفجيعة هو المهيمن والغالب في حياة المقهورين والمعذبين، بل تعدى ذلك كله إلى دائرة الأقوال المفجعة، منطلقا في توصيف نفسي واجتماعي لحياة مرضاه من خلال بوحهم في جلسات العلاج، يقول: «يجب أن أقول إنني رأيت فلاحين يكفكفون دموع زوجاتهم اللواتي اغتصبن على مرأى منهم، لقد هزني ذلك كثيرا» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 207).

يتجسد السرد عند "فانون" بوصفه بنية مفتوحة، ومرنة سمحت له بتفحص وكشف استنباطي في لحظة من لحظات المجابهة مع الذات أولا، ومع الآخر الذي يمعن في التعذيب، وقد ضل فكره ولم يهتد إلى الحقيقة الإنسانية العامة، فهذه الصور العديدة كشفت بعض الخفايا،

ورسمت ملامح الاختلال وانعدام التكافؤ بين المستعمِر والمستعمَر، ليصبح السرد معه أداة لإنتاج الوعي والمعرفة بالذات، وتحرير الحقيقة المكبلة والأحادية التي أنتجتها الكولونيالية.

«لقد أتيح لي في هذه السنين الأخيرة أن أرى الشرف والتضحية بالنفس وحب الحياة، وكره الموت أن ذلك كله يكتسي في الجزائر المقاتلة صورا فذة ولست أتغنى هنا بالمقاتلين، ولكن حقيقة ظاهرة أسسها أشد الاستعماريين حنقا، وهي أن للمقاتل الجزائري طريقة فذة في القتال وفي الموت، لا يمكن أن ترجع إلى الإسلام، وإلى الجنة الموعودة، تلك التضحية السخية بالنفس التي يقدمها المقاتل الجزائري حين يكون عليه أن يحمي وطنه أو أن يفدي إخوته» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 237).

للسرد في كتاب "فانون" أفق ثقافي يقع في نقطة تقاطع والتقاء مع التاريخ، في فضاء تلتبس فيه الحكاية بالذاكرة، نسعى للبحث في سياقاته الثقافية المضمرة، إذ قام بتشريح جدل السيطرة والمقاومة في التاريخ والجغرافيا، عن طريق بناء أسس التفكير بالتحرير

صاغت تجربة الاستعمار حيوات وأعمار الشعوب المستعمرة، وكانت هذه الصياغة من العمق لدرجة أن تأثيرها تجاوز المجالات السياسية والاقتصادية إلى مجال الثقافة والفكر، ومختلف التصورات التي يشكلها الإنسان عن نفسه، فأنشأ انفصامات، ونصّب حواجز، واخترع هويات، وهذا كله معمق للتنافر والنزاع واحتدامية الصراعات بين الإنسان والإنسان (المستعمِر والمستعمَر)، والناظر في نصوص "فانون" تتأكد لديه حدة هذه الاحتدامية، وشدة التنافر بين المستعمرين والأهالي، فيقول: « إن مدينة المستعمَر مدينة صلبة مبنية بالحجر والحديد، مدينة أنوارها ساطعة، وشوارعها معبدة بالاسفلت، وصناديق القمامة فيها ما تنفك تبلع نفايات ما عرفها الآخرون، ولا رأوها يوما، ولا حلموا بها يوما، والمستعمر لا ترى قدماه عاريتان قط، اللهم إلا على شواطئ البحر، ولكن الآخرين لا يمكن أن يقتربوا منها اقترابا كافيا، قدمان تحميهما أحذية متينة، مع أن شوارعها نظيفة لا ثقوب فيها ولا حصى» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 42).

يحاجج "فانون" في سرده بأن الاستغلال، والنهب الذي بنت به الكولونيالية مجدها، وترفها ورغد عيشها كان على حساب شعوب تصنفها أدنى من الحيوانات، كما استطاع أن يبرز الازدواجية والتمييز العنصري في المعاملة بين المواطنين الأوروبيين المتمتعين بكافة حقوقهم في العيش الكريم، وبين السكان الأصليين، الأهالي...الذين لم يجدوا ما يسدون به رمقهم، بل يتعرضون إلى

الاحتقار والاستغلال ونزع إنسانيتهم، فتصبح الكتابة السردية مع "فانون" أحد أهم الأسلحة لمقاومة الألم والتصدي لكل تبعاته، يحاول بها شفاء جراح وإزالة أوجاع، باحثة في الشرط الأخلاقي الذي يضمن للبشر قيم العدالة والحرية.

فالكولونيالية كما نعلم قد جندت وصنعت مثقفين أسهموا في إلغاء العقل، وصناعة الإذعان، ونذكر منهم "جي دوموباسان" و"البير كامو"، وهما رائدا الكتابة السردية الكولونيالية عن الجزائر، إذ استطاعوا أن يحققوا بعملهم العبودية الأكثر حذقا ومهارة في التاريخ، لأنها جعلت الفرد يتقبل عبوديته راضيا، "فدوموباسان" مثلا « يحاول الذهاب بعيدا في تحليله السيكولوجي، وهي نزعة معرفية سادت في نهاية القرن التاسع عشر، وذلك بربط ظاهرة التوحش والبدائية المزعومة التي تسم المسلمين بجوهر الإيمان الديني، لا بالظروف الاستعمارية التي فرضها عليهم النظام الكولونيالي الفرنسي. فالمسلمون في زعمه متوحشون ومتطرفون لأنهم خاضعون لإيمان متوحش ومستبد» (مهنانة، 2021، ص 169). لذا جاء التحرر كما صاغه "فانون" في كتابه بمثابة تشريح لعملية التحرر، وتساؤل حول مصير الشعوب المضطهدة، والتي وجب أن يتحرر وعيها الإنساني المكبل بسياجات، ليستطيع رسم صورة مغايرة عن الذات التي رسمها الآخر في أسطورة لا تقبل النقد.

فمن بين الخصائص التي زعم الاستعمار أن الشعب الجزائري يتصف بها، سنتحدث الآن عن ميله المذهل إلى الإجرام، «لقد أجمع القضاة ورجال الشرطة والمحامون والصحفيون والأطباء الشرعيون أجمعوا قبل عام 1954 على أن استعداد الجزائري للجريمة مشكلة من المشكلات، حتى لقد قالوا: إن الجزائري مفطور على الجريمة، وأنشأوا لهذه نظرية و جاءوا ببراهين علمية! وظلت هذه النظرية طوال أكثر من عشرين عاما تدرس في الجامعات، و تعلم هذه النظرية شبان جزائريون من طلاب الطب، فإذا بالصفوة تألف، شيئا فشيئا من — غير شعور منها، وجود هذه الآفات الطبيعية في الشعب الجزائري، كما ألفت الاستعمار: كسالى بالفطرة، كذابون بالفطرة، لصوص بالفطرة، مجرمون بالفطرة» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 263. 264). فهذه أكاذيب بنت عليها حكمها، وعلى هذه الشعوب المغلوبة تحطيم هذه الحقائق المزعومة، فطريق التحرير وحده القادر على تخليصهم من هذا الاضطهاد الاستعماري، وتحطيم الأصفاد التي كبلتهم وأبعدتهم عن تاريخ العقل الإنساني قرونا طويلة، يفند "فانون" هذه الأكاذيب بإظهار الحقائق ورسم الصورة الأقرب لهذا الشعب الذي يؤمن بأن تحرره لا يتم إلا بالعنف والثورة «وبأن القضية هي قضية استرداد الأراضي من الأجانب، هي قضية كفاح وطني، هي قضية ثورة مسلحة، الأمر

بسيط واضح، يكتشف هؤلاء الرجال شعبا متجانسا منسجما إن كان يعيش حياة ساكنة جامدة، فإنه ما يزال محافظا على قيمه الأخلاقية وعلى ارتباطه بالأمة، يكتشفون شعبا كريما سخيا، مستعدا للتضحية، راغبا في العطاء، نافذ الصبر، قوي الشمم والإباء» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 108).

كما تذهب الكولونيالية بعيدا في الفصل بين المواطن الأصلي والأوروبي، متجاهلة حقيقة تسطع كالشمس، وهي أن أوربا قد بنيت بسواعد العبيد الإفريقيين، وبثرواتهم التي نهبتها، ذهبها ومعادنها وغذاءها، مدعية أحقيتها في قيادة هذه الشعوب، لتبرير استغلالها، ويورد "فانون" هذا النص: « أما مدينة المستعَمر، أو مدينة السكان الأصليين...فهو مكان سيء السمعة يسكنه أناس سيئو السمعة، فيه يولد المرء أين كان، وكيف كان، وفيه يموت المرء أين كان، وبأي شيء كان، هو عالم بلا فواصل، الناس يتكدسون فيه فوق بعض ... إن مدينة المستعَمر مدينة جائعة إلى الخبز، وإلى اللحم، وإلى الأحذية، وإلى الفحم، إلى النور» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 42).

هذا النص يحمل مفارقة عجيبة، يرسم لوحة تجمع المتناقضات لواقع متأزم على أهبة الانفجار، لقد أمكن أخيرا في عام (1945) «أن يلاحظ الناس مقتل 45000جزائري في سطيف، وفي عام 1947 أمكن أن يقتل 90000 شخص في مدغشقر دون أن يكون هذا الحادث إلا خبرا صغيرا في زاوية مهملة من الصحف، وفي عام 1952 أمكن أن يموت 200000 شخص في كينيا دون أن يكترث أحد بالأمر كبير اكتراث» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 72). ويبدو هذا هو المعنى الأقرب لعبارة (وفيه يموت المرء أين كان، وبأي شيء كان). نظرا لتفنن المستعمِر في قمع وإسكات المستعَمر وإذلاله، بل يمعن في تعذيبه وهتك إنسانيته، ويبدو هذا الوضع منذرا بالانفجار القريب، وتغيير مرتقب يتخذ من العنف وسيلة لاقتلاع هذا المستعمِر من الجذور ورميه بعيدا.

الخاتمة

إن الخوض في أعمال الفيلسوف والأديب الكبير "فرانز فانون" يعد خطوة نحو تشريح العقل الإنساني المبني على مفهوم الاستعمارية والدونية التي تعيشها بعض دول العالم الثالث بصفة أكثر خصوصية، وقد تجلت هذه المفاهيم في أعماله السردية، والتي خرجنا ببعض النتائج، نصوغها فيما يلي:

- فكك فانون شفرات عقدة النقص القديمة بين المستعمِر و المستعَمر، من خلال نسف مركب العظمة لدى الغربيين الذين لم يعترفوا بالشراكة الإنسانية في القيم العامة، فالمستعمِر هو جامع لسمو المقام الرفعة الأخلاقية والتقدم، أما المستعَمر فجعلوه مستودعا للشر والانحطاط والدونية والتخلف، بل وصل الحد إلى التشكيك في اكتمال نضجه البيولوجي.
- أيقن إدوارد سعيد أن: «القوة الاستثنائية التي تمتلكها كتابة فانون تكمن في كونها تمثل سردية تنقض و تنفي القوة المعلنة للنظام الكولونيالي الذي يشدد أنه مهزوم لا محالة» (سعيد إ.، 2004، ص 283)
- يبدو "فانون" في هذا الكتاب مهموما بفكرة التحرر، و بتحليل طبيعته الامبريالية: فكان الهدف الأول لمشروعه التحرري هو الدفاع عن الهوية القومية، فانتقد الهيمنة المركزية وما نتج عنها من تهميش و إقصاء ممنهجين، ودعا إلى إحياء ثقافية وطنية أصيلة، يجابهون بها كل أشكال الهيمنة المعرفية الغربية التي أنتجتها المركزية الغربية والكولونيالية.
- يقول "فانون" «لقد أتيح لي في هذه السنين الأخيرة، أن أتحقق من صدق هذا الأمر الكلاسيكي جدا هو أن الشرف والكرامة والمحافظة على العهد المقطوع، وما إلى ذلك لا يمكن أن تظهر إلا في إطار تجانس قومي ودولي، أما إذا كنت تُصفَّى أنت وأقرانك كالكلاب، فليس لك إلا أن تستعمل جميع الوسائل لاسترداد وزنك كإنسان. وعليك إذن أن تضايق جسم الذي يعذبك أكبر مضايقة ممكنة، عسى فكره الضال أن يهتدي أخيرا إلى حقيقته الإنسانية العامة» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 237). وعليه يدعو "فانون" إلى شحذ الأسلحة لتحقيق انتصار إنسانية هذه الشعوب، ووضع السكين في عنق من انتهك إنسانيتهم، وهذا هو السبيل الأوحد لاستردادها، لأن الاستعمار عنف هائج لا يمكن إلا أن يخضع إلا لعنف أقوى. ويذهب "فانون" إلى أن العنف يمثل وسيلة فعالة في هذا التحرر «إن قتل أوروبي يصيب هدفين بحجر واحد، يزيح

مضطهدا، ويخلق إنسانا حرا» (فانون، معذبو الأرض، 2015، ص 31). هذا الإنسان الحر سيشعر لأول مرة بأنه يتحد بأرضه التي سلبها منه الغزاة.

- من يقرأ كتاب "فانون" "معذبو الأرض" يجد تقاطعا بين مضمون الكتاب، و مضمون نشيد الأممية لكاتبه "Eugene pottier" "اوجيه بوتييه" الشاعر الفرنسي التقدمي الذي كتبه سنة (1871) وفي سنة (1910)، فاز النشيد بقرار تبنيه كنشيد للحركة العالمية العمالية يقول:

هبوا ضحايا الاضطهاد

ضحايا جوع الاضطرار

بركان الفكر في اتقاد

هذا آخر انفجار .

فجاء عنوان الكتاب "معذبو الأرض" على ما يبدو مقتبسا من هذا النشيد، فكان دعوة للتغيير والثورة والتمرد على كل أشكال الاستعباد والذل والاستغلال.

الإحالات والمراجع:

1. الرحمان ,ط .ع .(2005) *.الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري،(ط 01)* .المغرب :دار الفكر العربي.
2. بعلي ,ح .(2007) *.مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، (ط 01)* .لبنان :الدار العربية ناشرون.
3. ريكور ,ب .(2009) *.الذاكرة التاريخ النسيان*، تر: .زيناتي,، (د ط)، لبنان :دار الكتاب الجديد.
4. سعيد ,إ .(2004) *.الثقافة والإمبريالية، تر:* ك .أ .ديب,، (ط 03)، لبنان :دار الآداب.
5. غيبسون ,ن .س .(2013) *.فانون المخيلة بعد الكولونيالية*، تر: خ .ع .هديب، (ط 01)، قطر :المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
6. غيرتز ,ك .(2009) *.تأويل الثقافات. تر:* م .بدوي,، (ط 01)، لبنان :مركز دراسات الوحدة العربية.
7. فانون ,ف .(2004) .*بشرة سوداء أقنعة بيضاء. تر:* خ .أحمد,، (ط 01)، لبنان :دار الفارابي.
8. فانون ,ف .(2015) .*معذبو الأرض*، تر: س .الدروبي & ,ج .الأتاسي,، (ط 02)، مصر :كدارات للأبحاث والنشر.
9. كانط ,إ .(1984) .ما هو عصر التنوير *.مجلة الكرمل ع ص* (12)
10. مهنانة ,إ .(2021) *.في نقد العقل السردي، (ط 01)*، .لبنان :منشورات ضفاف.
11. وورد ,د .(1999) *.الوجود والزمان والسرد. تر:* س .الغانمي , (ط 01)، المغرب :المركز الثقافي العربي.